خطوط المشاركة ❖

آن بيرجيه

ترجمة: ليلى الخطيب

جاك دريدا

أن نَقْرأ: هذا هو الموضوع. ثمّة ضرورة لأن تُنتج كلُّ واحدةٍ وكلُّ واحدٍ منّا، وعلى نحو مختلف، قراءاتٍ للاختلاف الجنسيّ، لا دلائلَ أو براهينَ مضادة. «أيتوجّب عليّ إثباتُ الأمر الأكثر لاحتمالاً في العالم، [أيْ إثبات] الحقيقة، البداهة؟» تتساءل هيلين سيكسو. «إنّما نحن نؤوّل الاختلاف الجنسيّ، بمعنى أنّنا نَقْرأه، أيْ دون أن نراه، بل نَشْهد فقط ذلك الاختلافَ ما بعد المُعْطى الجسمانيّ وإثباتاتِ الأحوال الشخصية وكلّ شبكة المعايير المسمّاة موضوعيةً للتعريف الجنسيّ: علينا إذن أن ننتقل مِنْ «نرى» إلى «نَقْرأ،» كما يقترح جاك دريدا.

فلنتركْ إذن قاعةَ الامتحان حيث «عليّ إثباتُ أنا وأنت، هي وهو، هي هي وهو هو،» كما تَقْترح هيلين سيكسو. فلنتركْ قاعةَ المحاكمة حيث ما زال عليّ أن أقدّم الإثباتَ وأن أجيب بنعم أو لا، لكوني الشاهدَ العيانَ للحقيقة، على نحوٍ ما يلمّح جاك دريدا. ولننتقلْ إلى قاعةِ قراءةٍ (وقراءات) الاختلاف الجنسيّ.

أن نَقْرأ، أيْ أن ننتقل إلى ما بَعْدِ ما نرى ونَعْرف، وفق تعبير دريدا، أمر مرتبط بالتأكيد بسؤال الاختلاف الجنسيّ، وبالطريقة التي يُطرح بها هذا السؤالُ علينا، فيمسّنا ويُعْمينا. «في اللّحظة التي أقول فيها لنفسي: هذا بدهيّ،» تُشير هيلين سيكسو، «... أتذكّر أنّنا كلّنا عميان، وأنّ ما نراه إنّما نراه من منظورنا كعميان، وأنّنا عميان نَرْسم صورتَنا نفسَها.» أَرْسمٌ ذاتيّ هو، أَمْ رسمٌ للآخر؟ نستطيع، أو ربّما نودّ أحيانًا، أن نُخطئ في الأمر، وبخاصةٍ عندما نَعْتقد أنّنا نَنْظر مباشرةً إلى الحقيقة، كالصبيّ الصغير الذي «يرى» خصْيَ أمّه «برهانًا» على الاختلاف الجنسيّ،

هيلين سيكسو

أو كالبُدِّيّ (الفَتَشِيّ) الذي لا «يراه.» أن نرى ونَعْرف: تلك ادّعاءاتُ عميان. «ليتنا نستطيع أن نَقْرأ!» (هيلين سيكسو)

لكنْ، أن نَقْرأ الاختلاف الجنسيّ يعني أن نجازف لأنّنا قد لا نرى ولا نَعْرف بالتحديد ما هو الموضوعُ. غير أنّ هذا يَعْني أيضًا أنّنا لا نستطيع، وأنّ علينا ألاّ نوقف السؤالَ ونضعَ حدّاً للنقاش. «لن ننفكّ نتساءل، في ما يخصّ الاختلافَ الجنسيّ ـ لكنّ هذا هو بالضبط الاختلافُ الجنسيُّ ـ إنْ كان ذا علاقةٍ بهذا الوضع: أي التساؤل»؛ هذا ما يلاحظه جاك دريدا، تاركًا الخلاصات معلّقةً. أن نُنْتج قراءةً للاختلاف الجنسيّ قد يَعْني، على الأقلّ، أن «نَسْأل أنفسَنا أن نسأل.» ولئن كنّا «سنظلّ نتساءل،» وكنّا أيضًا سائرين شتّى أَمْ أبيْنا في سؤال الاختلاف الجنسيّ ومعه، فذلك لأنّه هو أيضًا يقرأنا، ويَفْعل فعلَه، أيْ قراءتَه فينا، حتى عندما لا نريد أن نَعْرف أو عندما نريد فقط أن نَعْرف. فعندما نَقْرأ الاختلافَ الجنسيَّ، اختلافَ الآخر واختلافَنا، متّحدين أو منفصلين ـ وهو ما يسمّيه دريدا «أن نسأل نفسَنا ـ الآخرَ» (le se demander à l'autre) ـ فإنّ مَنْ يَقْرأ الاختلافَ «هو دائمًا هي أو هو» كما يقول دريدا أيضًا: «لا توجد قراءةٌ ميتا ـ جنسيّة.» لكنّ هذا لا يَعْني أنّ الشخص القارئ والمقروء يُدرك فعلاً مَنْ «منها» أو «منه» يُحْدِث،

❖ ـ مقدمة لكتاب بعنوان: **قراءات للاختلاف الجنسيّ**، Lectures de la différence sexuelle, Paris, Editions des Femmes, 1994، وهو عبارة عن أعمال مؤتمر دوليّ يَحْمل العنوان نفسه، وقد عُقد في باريس عام ١٩٩٠ بدعوة من «مركز الدراسات النسويّة» في جامعة باريس ٨ الذي تديره هيلين سيكسو، وبالتعاون مع «معهد الفلسفة» الذي يديره جاك دريدا. (ل.خ)

فيه وفي قراءته، الاختلافَ ـ أو لا يُحْدثه. إذ كيف لي أن أتأكّد من أنّني أَعْرف صيغةَ الآخر، واختلافَه، وتشابُهَنا؟ كما أنّني لست أكيدةً من أنّني أَعْرف صيغتي **أنا**، ما يَرْبطني بالآخر، وما يَفْصلني عنه.

يبقى أن «نَبْتكر الحقيقة،» التي لا يُمْكن إلاّ أن تكون في البَيْن، بَيْن حقيقتين: «بيني وبينك، أين هي الحقيقة؟ إنّها بيننا» (هيلين سيكسو). لذا، ثمة ضرورة: سياسيةٌ، وأخلاقيةٌ بل فلسفيةٌ ولسانيةٌ، بأن «نَعْدل، وعلى نحوٍ لامتناهٍ، عن كشف السرّ، سرِّنا ـ وسرّ الآخر» (دريدا). وقد نسمّي هذا، بلغة هيلينيّة (وديونيزيّة)،[1] «احتفالاً بلغز الاختلاف الجنسيّ.» لكنّ التوجُّه يبقى ذاتَه، وهو توجُّه يَدْفعنا إلى احترام السرّ الذي يَحْفظنا.

فإذا ما قرأنا بعد ذلك، من دون أن نطمئنّ إلى الظواهر، فسنتمكّن من أن نرى خطوطًا للمشاركة تَرْتسم: خطوطَ وصلٍ وفصلٍ، وفصلٍ في الوصل. هكذا يتّفق دريدا وسيكسو في ارتيابهما من الظواهر، وذلك لأسباب أو بالأحرى لسببٍ مختلفٍ لكنّه متقارب: فبالنسبة إلى دريدا، أن ننتقل مِنْ «نرى» إلى «نَقْرأ» يعني ـ مِنْ بين ما يعني ـ أن نَخْطو إلى ما بعد الجسد، أن نتخلّص من التحديد الجسمانيّ «الموضوعيّ»؛ إنّه يعني أن نَنْزع عن سؤال الاختلاف وفكره تحديداتِه الطبيعيةَ والبيولوجيةَ. لا شك أنّ دريدا يعلن هنا حذرَه من النزوع إلى «جوهرة» الأمور، هذا إذا اعتبرنا أنّ الجسد «جوهر» essence أو مرتبطٌ بمفهوم الجوهر. وقد يكون في كلام دريدا علامةُ تواطؤ، مقصودةٌ أو غيرُ مقصودة، مع تراثٍ فلسفيٍّ مثاليٍّ يدعو إلى الارتياب من الجسد المخادع، ويَنْزع عن الجسد قدرتَه الدلالية. وربما تعلّق الأمرُ، أخيرًا، لا بصياغة خطابٍ عن الجسد، وعن حاله الفلسفية أو قيمته المعرفية، بل بالإشارة إلى علاقةٍ بالجسد تختلف باختلاف الاقتصادات الليبيدو ـ نفسيّة، وتختلف أيضًا باختلاف توقيت الملفوظة ووجهتِها: فهي مختلفة من ثم عن تلك التي تشير إليها، مثلاً، هيلين سيكسو. إنّ العلاقة هي التي تُوجِد الجسدَ. لذا فإنّ الجسد الذي يتحدّث عنه دريدا هو غيرُ الجسد الذي تتحدّث عنه سيكسو (...). فهي تتحدّث من الداخل وهو يتحدّث من الخارج: المسألة تتعلّق، إذن، بموقع التلفّظ. ولأنّ اختلافاتنا غيرُ متطابقة، فإنّها لا تُفَسَّر ولا تتمثّل بالطريقة نفسها.

غير أنّ الاختلاف يَرْبط: هذه هي مفارقته، وهذا هو شِعْرُه. إذ يجب أن نكون اثنين، «سويّاً» (كما تقول هيلين سيكسو، ويقول جاك دريدا)، كي يَحْدث الاختلاف. فهو يُستشفّ ويَظْهر ويتحرّك في اللقاء. المختلفة لا يمكن أن تنفصل عن مختلِفِها. ولهذا السبب، تتطلّب مقاربةُ الاختلاف **البَيْن والآخَر** وتُنتجهما (...). يَتْرك الاختلافُ أثرًا وأنا أقرأه بين هيلين سيكسو وجاك دريدا فيما هما يقرآن بعضَهما مرتبطَيْن، لا برغمِ ما يَفْصلهما بل بفضلِ ما يَفْصلهما.

ذلك أنّنا لا نستطيع ألاّ نكترثَ بالاختلاف الجنسيّ. فهو يحثّ على القراءة والكتابة، على التأشير [أي التوقيع بالأحرف الأولى] والشطب، على الحُلم والأدب، إذ «ليس ثمة تجربةُ أثرٍ لا تسعى وراء رقم الآخر،» كما يقول دريدا. إنّ الاختلافَ يجعلنا نَسْعى وراء رقم الآخر؛ يَجْذبنا نحو فكّ الرموز، حتى لو كان مستحيلاً. بعبارة أخرى، لا ينبثق الاختلافُ من اللقاء فحسب، وإنّما يُحدثه أيضًا: إنّه هو اللقاء. وتلك خطوةٌ إضافيةٌ في هالة المُحِبّ، وقد يَكُون الحبُّ.

لكنْ ربّ قائل: أيُّ اختلافٍ، إذن، بين هذا الاختلاف وغيره؟ ألا تتساوى كلُّ الاختلافات وتتبادل ضمن الصيغة التغايرية الكبيرة؟ لا نستطيع، بل لا ينبغي، بالطبع، أن نجيب. ربما لأنّ فكر الغيريّة altérité وهمَّها غيرُ كافيَيْن، بشموليّتهما، لقياس رهاناتِ الاختلاف الجنسيّ وموقعِه وآثاره. وربما لأنّ الاختلاف يَرْبطني بالآخر فيما هو يَفْصلني عنه على نحوٍ خاصّ، «منذ الأزل،» وفق المقولة الشائعة التي تعني، فعلاً أو أيضًا، «ما بقي في الذاكرة.» فإذا كان ذِكْر الاختلاف الجنسيّ يثير، بشكل مباشر أو غير مباشر، الأحلامَ أو التساؤلات السلالية، فذلك لأنّ الاختلاف، دونما ريب، يضعني، عبر السلالات والأجيال، في علاقة مع اللقاء الذي يجعلني موجودًا في الدنيا: لا مع أيّ آخر فحسب، ولا مع ذلك الآخر الذي التقيتُه بفعل المصادفات أو التاريخ (العِرْق الآخر، الطبقة الأخرى) فقط، ولا مع الآخر الذي هو داخلي أو الذي استبطنتُه فحسب، بل أيضًا مع الآخر الذي هو قَبْلي ومع ما يَرْبط الآخرَ الذي هو داخلي بالآخر الذي هو قبلي. وهذا الأمر يضعني، وعلى نحوٍ لامتناهٍ، عبر ذاكرةِ هذا الرباط أو من دونها، في موضع مَنْ هو مِنْ (de)، ومَنْ هو اثنان (deux) في الوقت نفسه ((être de (ux)).

«عندما نتحدّث عن الاختلاف الجنسيّ، فإنّ الشخص الذي يَحْمل عبءَ الاختلاف وسؤاله غالبًا ما يكون المرأة،» كما تُذكّر هيلين سيكسو. أجل، تقليديّاً وثقافيّاً، يُطرح أو يُفرض لغزُ هذا الاختلاف على النساء، لكونه لغزَهنّ، اختلافَهنّ، وما عليهنّ إلاّ التعاملُ معه وحلُّه (أو عدمُ حلّه) فيما بينهنّ. ولأنّهنّ يَرِثْن وحدهنّ علامةَ الاختلاف الجنسيّ، فإنّ هذه العلامة تصبح علامةَ قطعٍ وخطَّ فصلٍ وحجّةً للإقصاء. تَشْعر حاملاتُ الغيرية بأنّهنّ مهدَّدات بالأبارتهايد. ومن هنا ريبتُهنّ ومحاولاتُهنّ التهرُّبَ والإنكارَ: فالاختلاف الجنسيّ هو وجعُهنّ لأنّه يُفهم ويؤوَّل بوصفه بترًا وقطعًا،[2] في حين أنّ علينا أن نتعلّم أن نَقْرأ ونتكلّم في البيْن، بيننا.

باريس

آن بيرجيه

أستاذة في جامعة كورنيل (إيثاكا) في الولايات المتحدة الأميركية.

---

١ ـ تَشْمل المؤلّفة بكلمة «هيلينيّة» النسبةَ إلى هيلين سيكسو. (ل.خ)

٢ ـ النساء هنّ اللواتي يَمِلْن إلى القول: «ليس ثمّة اختلاف، أنا مثله» (لا: هو مثلي). فيَرِدُ عليهنّ بعضُ الرجال بنوعٍ من المسايرة: «بل هي مثلي»: ومنهم مَنْ يعلن وكأنّه يُرضي نفسَه: «أنا مثلها.»